الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي أحمد بن يحيى الونشريسي
معهد الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي
موسومة بـ:

التداخل الحكائي والتاريخي في نصوص السيرة الشعبية العربية

تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبتين:
- **سمارد فاطمة**
- **صاف إيمان**

إشراف الأستاذة:
د. وسواس نجاة

لجنة المناقشة

أ.د. دردار البشير	أستاذ التعليم العالي	رئيسا
د. قردان الميلود	أستاذ محاضر "أ"	مناقشا
د. وسواس نجاة	أستاذ محاضر "ب"	مشرفا ومقررا

السنة الجامعية: 1440-1441هـ// 2019 – 2020م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

الحمد لله عز وجل حمدا كثيرا الذي وفقنا إلى إتمام هذا البحث،
و أمدنا بالصحة والعافية والعزيمة
نتقدم بجزيل الشكر إلى أستاذتنا الغالية الحنونة المشرفة " وسواس نجاة" على ما قدمته لنا من مساعدات وتوجيهات ومعلومات قيمة أسهمت في إثراء موضوع بحثنا،والتي لم تتردد ولو دقيقة في الوقوف إلى جانبنا في كافة الظروف وضحت بوقتها وجهدها من أجل مساعدتنا حفظك الله وجعلك ذخرا وخيرا لكل محتاج.
كما نتقدم بجزيل الشكر الى أعضاء اللجنة المناقشة الموقرة ، وإلى أساتذة معهد الأدب العربي، كلهم لهم جزيل الشكر .

فاطمة / إيمان .

إهداء

الحمد لله الذي وفقنا في اتمام هذه الخطوة في مسيرتنا العلمية، بفضل منه سبحانه وتعالى .

أهدي عملي هذا الى من كانا سببا سندا وعونا لي في كل مراحل حياتي وحتى هذا اليوم، والداي الحبيبان حفظهما الله وأمد بعمرهما.

إلى عائلتي الكريمة التي لطالما كانت سندا لي .

إلى من كانتا لي سندا وعونا، في فرحي و حزني، إلى رفيقتي الغاليتين، أدام الله ودنا وجمعنا في جنته كما جمعنا في دنياه " إيمان و أمينة"

إلى من جمعتني بهم أحلى أيام عمري الى صديقاتي " حنان ، آية هبة الله ، قطر الندى" رفع الله شأنهما و أعزهما.

فاطمة.

إهداء

ها نحن وبفضل الله وعونه نطوي دفتي هذا العمل المتواضع فالحمد لله الذي بارك لنا في أعمارنا وصحتنا لنصل إلى هذا اليوم .

إلى من أفنت حياتها وصحتها من أجل راحتي وحاربت من أجل تربيتي إلى رمز الحنان والأمان الى شعاع النور في حياتي أمي أطال الله عمرها .

.إلى عمتي وخالتي الغاليتان صفية ومريم أدامكما الله في حياتي .

إلى سندي في الحياة عائلتاي الكبيرتان عائلة "مزروح "وعائلة "صاف".

إلى رفيقتي اللتان دامت صداقتنا لأكثر من اثنتا عشرة سنة، الأقرب إلى قلبي، أختاي في الحياة فاطمة وأمينة، أدام الله ودنا وجمعنا في جنته مثلما جمعنا في دنياه .

إلى صديقاتي الغاليات: آية، ندى، فتيحة، خولة، حنان حفظكهن الله

إلى كل هؤلاء وهؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع

نسأل الله أن يجعله في ميزان حسناتنا.

إيمان .

مقـــــــــدمة

انفتح السرد العربي خلال العصر العباسي على جملة من الموروثات الثقافية المختلفة من نثر وشعر وأخبار، جعلت منه نصا متنوعا على قدر كبير من الاختلاف عما سبقه، لذلك آثر هذا البحث الوقوف على واحد من الأنواع السردية التي ميزها ذلك الاختلاف ألا وهو السيرة الشعبية، حملت بين طياتها العديد من المزايا التي تدفع بالقارئ إلى التطلع إليها، إضافة إلى المتعة التي يحدثها في نفس المتلقي، فالسيرة الشعبية بهذا تعد نصا منفتحا على بقية أشكال التعبير الأخرى سواء كانت النثرية أم الشعرية و ذلك لارتباطها الوثيق بشخصيات تاريخية بطولية، وهذا قلما نجده في بقية الأنواع السردية الأخرى على الرغم من بعدها الخبري.

فالسيرة الشعبية في بدايتها ارتكزت على الشفاهية، تشكلت في أوساط شعبية مختلفة معتمدة في تشكلها على عوالم واقعية و تخييلية، فهي تعد قصصا مأخوذة من التراث العربي، تمجد المكارم والأخلاق النبيلة العربية كقوة العربي و عزته و قوته وشهامته، كما تنكر الأخلاق السيئة كالغدر و الخيانة. يقوم الراوي بإنشادها في مكان عام ما.

فالسيرة الشعبية في بدايتها نشأت في ظروف غير ملائمة صعبة و ذلك لارتباطها بحياة الناس و تاريخهم و حضارتهم و امتدادهم الاجتماعي و الثقافي، ومن خلال هذا فالسيرة كانت تقتبس أحداثها وتنطلق بداية مع أحداث شخصية بطلة، منبعثة من الأصول العربية التي حملت في طيات شخصيتها النبالة و الشجاعة والعديد من الصفات المحمودة، التي عمل رواة السيرة على زرعها في شخصية البطل التي سعت الى نقلها للسامع وترسيخها في مكنوناته، وهذا كله من أجل الوصول إلى الغاية المبتغاة من السير والهدف السامي من وراء كل ذلك هو جعل بطل هذه السير أو أبطالها هم القدوة و المثل الأعلى في المجتمع العربي .

من ناحية أخرى، كان للوضع السياسي والمشاكل التي مرت بها البلاد العربية في نهاية العصر العباسي أثر كبير على العرب ، حيث إنهم لم يتقبلوا ما حل بهم من غزو صليبي، فعاشوا وهم يأملون ميلاد بطل من صلب الأمة العربية، ينقذهم هذا الغزو ويعيد لهم عزتهم، وهذا ما ركز عليه رواة السيرة في سيرهم، بحيث عملوا على خلق أبطال شابهت شخصياتها شخصيات كتب التاريخ أمثال المهلهل والزير سالم وعنترة بن شداد وغيره.

وبالاستناد إلى هذا طرح البحث جملة من الإشكالات حول السيرة الشعبية أبرزها كيف تشكل نص السير الشعبية وكيف كان التداخل بين التاريخ والتخييل في هذا النوع؟ وماهي أهم نصوص السير الشعبية التي سلط عليها النقد الضوء في الأدب العربي وأهم المرجعيات التي ارتكزت عليها السيرة الشعبية ؟

و اعتمادا على هذه الإشكالات تضمن البحث مدخلا وفصلين يندرج تحت كل مجموعة من العناصر، إضافة إلى مقدمة و خاتمة تضمنت نتائج هذا البحث.

حيث تضمن المدخل حديثا عن أهم الأنساق التي تشكل السرد العربي القديم في ظلها والخبرية بوصفها قاعدة استند إليها هذا السرد.

أما الفصل الأول فقد تضمن مجموعة من العناصر كان موضوعها السيرة الشعبية بوصفها نوعا سرديا مستقلا، وكيف تشكل هذا النوع في الأدب العربي القديم ودوافعه، وأهم خصائص هذا النوع، وزمن تأليفها، ولغتها التي تمايزت بين الشعر والنشر وطرائق تداولها وإنشادها بين العامة .

أما الفصل الثاني كان بعنوان التداخل التاريخي و التخييلي في السير الشعبية العربية، وتضمن كذلك ثلاثة عناصر، أولها مرجعيات السيرة الشعبية (الواقع/ التخييل)، ثم التداخل بين الحكاية التاريخية والعجائبي في السير الشعبية، ثم دور الرواة في إحداث هذا التداخل.

وفي الأخير الخاتمة التي كانت بمثابة الحوصلة العامة لأهم النقاط أو النتائج المتوصل إليها في هذا البحث.

معتمدين على مجموعة من المصادر و المراجع أهمها:

السردية العربية الحديثة ,تفكيك الخطاب الاستعماري و اعادة تفسير النشأة

يونس عبد الحميد , الهلالية في التاريخ

وقد انتهج هذا البحث في دراسة هذا الموضوع المنهج التاريخي الوصفي باعتباره المنهج الذي بدا مناسبا لمثل هذا الموضوع، لأنه تضمن أحداث و شخصيات تاريخية مصورا بذلك نمط حياتهم في زمن مضى .

من ناحية أخرى، واجه هذا البحث مجموعة من الإكراهات والصعوبات خلال مساره تمثلت تحديدا في عدم توفر المصادر والمراجع التي تخص هذا البحث وبخاصة في ظل الوضع الصحي الذي عرفته الإنسانية قاطبة، وعدم توفر المكتبة الجامعية للمصادر الكافية، مع استمرار غلق المكتبات الجامعية و العمومية .

والله ولي التوفيق .

تيسمسيلت: 2020/08/17 .

مدخل

- **السرد و الأنساق:**

السرد العربي القديم هو ذلك الكون الشاسع الذي امتد ليضم تحت جناحيه كثيرا من النصوص التي شغلت الفكر العربي والعالمي، وعلى الرغم من أن هذا السرد عرف كثيرا من التهميش في النقد العربي القديم بسبب الاهتمام الكبير بالشعر وبلاغته، إلا أنه أثار حوله كثيرا من الإشكالات التي جعلته يضمن موقعه في خارطة الأدب القديم، وتأتي كثير من النصوص السردية القديمة في مقدمة تجلياته التي أثارت هذا الجدل كألف ليلة وليلة والإمتاع والمؤانسة والبخلاء ورسالة الغفران وغيرهم .

من ناحية أخرى، يبدو للمتأمل في تشكل ظاهرة السرد العربي القديم أنه بني على قاعدة خبرية، تحكمت فيه مجموعة من الأنساق الثقافية التي لم تكن مرهونة به فقط بل بكل الأدب العربي القديم، و هذه الأنساق لم تكن المتحكمة فقط في نشأة الأنواع السردية العربية القديمة بل كانت كذلك مساهمة في تداولها ، و انتشارها و تطورها و تغير ملامحها، يمكن تحديدها في ثلاثة أنساق أساسية هي[1]:

1- الشفهية: كل الأدب العربي والعالمي قديما تناقل شفاهة إلى غاية زمن التدوين، فهي نسق لم يتحكم في تداول السرد فقط، إلا أن السرد كان أكثر تأثرا كونه نصا قابلا للزيادة الحذف بحسب رغبات الراوي الذي تحكم في الصياغة الأخيرة للحكاية في كل مرة .

2- الطلبية: من خلال كثير من المواقف المتضمنة في كتب السرد العربي القديم يبدو أن هذا السرد جاء تحت الطلب في معظم حالاته، إما من أمير أو ملك أو سلطان، أو حتى جموع الناس التي تسعى إلى المسامرة و الاستخبار.

3- الخبرية: والخبر كان أصل كل المرويات والأنواع السردية العربية القديمة، سواء كانت تاريخية واقعية أم خرافية أسطورية ، أريد من خلالها نقل واقعة ما بغض النظر عن طبيعتها، فالعربي قديما كان مجبولا على حب الإخبار والاستخبار، فقد كان يسمع الخبر ويرويه، سواء أرواه كما سمعه أم عدل فيه .

[1] ينظر في هذا ، عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2006، ص 20 وما بعدها .

و مادام الخبر أصلا لكل الأنواع السردية القديمة فينبغي الوقوف عليه حيث ماهيته بوصفه نسقا و نوعا معا، ما ينبغي الإشارة إليه في البداية هو أن الخبر هو من الأنواع السردية التي عرفت لدى العرب قديما، وقد كانت له قيمة أدبية في التراث العربي، فهو اصل كل المتون العربية قديما شعرا ونثرا، والمتأمل فيها يجد أن القصيدة والحكاية معا هي تجميع أخبار إما في هيئة شعرية عمودية أم نثرية، و لعل هذا ما زاد من قيمته في المنظومة الأدبية القديمة، فكثرت الأخبار وتنوعت مواضيعها، وارتبط البعض باللغة والآخر بالتاريخ، و هناك ما ارتبط بالدين، و هذا يعود إلى قوة اهتمام العرب بالأخبار وتأثرهم بها كسائر الأنواع النثرية الأخرى[1].

- **السرد و الخبر:**

وردت لفظة "خبر" في المعاجم العربية بعدة معان، حيث ورد في لسان العرب في مادة خبر الخبير من أسماء الله عز وجل بما كان وبما يكون، وخبرت بالأمر أي علمته وخبرت الأمر أخبره إذ عرفته على حقيقته، و قوله عز وجل "فاسأل به خبير"[2] أي سأل عنه خبيرا يخبر، الخبر بالتحريك واحد الأخبار و الخبر ما آتاك من نبأ ستخبره، والخبر_ النبأ، والجمع أخبار وأخابير، وأما قوله تعالى " يومئذ تحدث أخبارها"[3] فمعناه تزلزل وتخبر بما عمل عليها، وعليه فالخبر هو العلم بالشيء ونقله مشافهة أو كتابة، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم خمس مرات، اثنان في صيغة الإفراد، وثلاثة في صيغة الجمع، وكانت تعني النبأ والقصة كما في قوله عز وجل "قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم"[4].

ومن المعاني التي يحيل إليها هذا اللفظ أيضا " الأثر" أي ذكر الحديث ومنها جاء القول المأثور، الذي يتداول خبرا معينا بين الناس، كما يحمل معنى القص كذلك، إذ بالانتقال إلى رواة الأخبار نجد أن الأقدمين لم يكونوا يفهمون من

---

[1] ينظر , شعلان عبد الوهاب , السرد العربي القديم , السيوالسيو ثقافية و الخصوصيات الجمالية , مجلة الموقف الأدبي , دمشق ع 412, 2005, ص 45 .

[2] الفرقان 59

[3] الزلزلة"4 .

[4] التوبة"94 / ينظر, ابن منظور الإفريقي, لسان العرب/ج3, ضبط نصه خالد رشيد القاضي, دار الأبحاث, ط , ص

المعنى الإخبار إلا أنه القص، حيث يقال قاص لمن يروي الأخبار والحكايات والقصص والنوادر.

ومن المصطلحات التي علقت بمصطلح الخبر في الثقافة العربية القديمة مصطلح الحديث، إذ بعد مجيء الإسلام صار الحديث في الاصطلاح يعني كل ما نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من أفعال وأقوال ومآثر، والخبر ما جاء عن غيره، و هناك من يقول أن الحديث مرادف للخبر ، في حين هناك من يقول أنه مغاير له، و يذهب أصحاب الموقف الثاني إلى أن الحديث هو ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فقط، والخبر ما جاء عن غيره، و هناك من يقول أنه أعم منه، فالحديث ما عند النبي عليه الصلاة و السلام و الخبر ما جاء عنه و عن غيره[1].

1- الخبر في الاصطلاح:

مصطلح الخبر واحد من المصطلحات المتداولة لدى أهل البيان والأصوليين والمناطقة والمتكلمين، كما كان منتشرا عموما في الثقافة العربية منذ الجاهلية كلفظة تحيل إلى نقل معلومة معينة سواء تعلق الأمر بحادثة واقعة أم متخيلة.

والحديث عن الخبر في السرد العربي القديم حديث طويل وعميق، ذلك أن الأمر يتعدى مجرد حديث عن نوع سردي إلى حديث عن قاعدة سردية من ناحية، ومن ناحية أخرى بسبب تداخل هذا المصطلح مع مصطلحات أخرى مثل القول والحديث والنادرة وغيرها .

حيث يعرف الناقد محمد القاضي الخبر بالاستناد إلى خلفياته التاريخية وعلاقته ببقية الأنواع السردية والقول عموما، فيرى أن الخبر مجموع الأحداث التي تمثل المادة الخام التي يجعلها قوام السردية قبل تجسيدها نصيا، وأنه يسجل لحظة عابرة، ذو أساس استخباري فهو في عمومه نتيجة طلب ما، تداول في الأدب العربي عن طريق الرواية شفاهة، وأن عدد الرواة قد يزيد أو يقل فيه بحسب السند، يتراوح بين الخيال والواقع[2].

---

[1] ينظر , عبد العزيز عتيق , في النقد الأدبي , دار النهضة العربية للطباعة و النشر , ط2 1972, ص 236

[2] ينظر، محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، تونس، ط1، 1998، ص 70 وما بعدها .

كما يعرف الناقد سعيد جبار الخبر على أنه الوحدة السردية الصغرى التي تتميز بالبساطة الحدثية وقلة الشخصيات، وأنه جنس عام يتضمن كل الانواع السردية التي تقوم على قاعدة خبرية، إلا أن تداوله في الأدب العربي ارتبط بمصنفات معينة، لكنه نفى عنه الشمولية لجعله نوعا محددا يوازي مفهوم القصة أو كل ما يتضمن مادة حكائية، و يقابلة بمصطلح السرد ليصبح الخبر نوعا متضمنا داخل هذه الحلقة الكبيرة السرد[1] .

ويضيف سعيد جبار بأن الخبر واحد من المفاهيم العامة يشمل كل الأنواع التي يميزها الطابع الإخباري السردي ، و على الرغم من أنه من ناحية أخرى الوحدة السردية الصغرى التي تشكل النصوص السردية القديمة ، و السرد عامة ، أهم ما يتميز به هو بساطة الأحداث فيها ، و قلة الشخصيات ، و بهذا النوع قد يتضمن كل الأنواع السردية الأخرى من خلال انتظام الأخبار التي تحمل نفس الموضوع في نص واحد، فالخبر نوع قابل للتطور ليخرج من البعد الخبري الى نوع آخر أكثر طولا من الأصل[2] .

يشترك التعريفان في كون الخبر من المصطلحات المندرجة تحت السرد، بل هو أكثر من ذلك فهو نوع سردي له غاية في كونه يسعى إلى إيصال معلومة إلى المتلقي كما أن المقام هو الذي يحدد طبيعته، و تعد الأخبار أحداث للماضيين وما تمثل من أفعالهم وأقوالهم وكل ما طرأ من تغيرات على حياتهم وأوضاعهم. و الأخبار يتناقلها الرواة مع اختلاف رواتهم ويتوارثها اللاحقين عن سابقيهم ممن تلك الأخبار و وصلت لهم عن طريق الرواية .

والاضطراب الذي مس مفهوم الخبر دليل على اهتمام الكثير من النقاد بهذا النوع وتصنيفه، وعلى الرغم من كل الدراسات المقدمة حول السرد العربي القديم ، إلا أنه لا يزال الكثير من الجوانب التي لابد من البحث فيها ، ودراستها، خاصة فيما يخص البداية الأولى من تشكله ، وقد تعرضت النصوص السردية القديمة لجانب كبير من التهميش بسبب الاهتمام البالغ بالشعر العربي و بلاغته ، كما تعرضت لكثير من التحريف والإضافة، مما غير في كثير من الحالات من طبيعتها و توجهها السردي .

---

[1] ينظر، سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، الثوابت والمتغيرات، شركة النشر والتوزيع المدارس، المغرب، ط1، 2004 ، ص95 وما بعدها .

[2] ينظر، المرجع نفسه، ص 100 وما بعدها.

و يعد الخبر أصلا لكل تشكلات السرد العربي القديم، فقد اعتمد على مجموعة من الوسائل و الأساليب في تقديم مادته، و هذا ما غير في النصوص السردية ودفع بها إلى إظهار مميزاتها وخصائصها، مثيرة بذلك دوافع الدراسات النقدية لإنتاج مناهج و اتجاهات جديدة في دراستها لهذه النصوص، مبرزة بذلك العلاقة التي تجمع بين السرد و الأنساق الثقافية التي ارتبط انتاجه بها، وبهذا يمكن التمييز بين النصوص السردية ذات النوع الواحد، وهذا ما وجد في نصوص الخبر العربي، الذي كان له دور كبير في إبراز تميزه والأنواع السردية الأخرى ولقد بني هذا على أساس فاعلية الإخبار، والتي كانت له صلة وثيقة بما أوجدته الأنساق الثقافية الذي له دور في تقديم و تأخير مكونات النصوص[1].

لقد اعتمد رواة السرد العربي القديم في مروياتهم على دمج الشخصيات التاريخية والأحداث باستخدام الخيال، وما حملته ملكاتهم من التخييل والعوالم الخيالية، ومن هنا تم انتقاله من مجاله العام كونه وسيلة لنقل المعلومة أو الحدث من شخص الى آخر إلى مجال سردي في كونه نصا سرديا يحتمل بنيات حكائية، كما أشار بعض الدارسين العرب إلى أن الخبر هو جزء من كلام العرب .

[1] ينظر , لؤي حمزة عباس , بلاغة التزوير , فاعلية الإخبار في السرد العربي القديم , الدار العربية للعلوم , ناشرون ط1 ص 09

الفصل الأول

1_في ماهية السيرة الشعبية:

أ- لغة:

تشير لفظة السيرة في المعجم العربي إلى السنة والطريقة الحسنة والهيئة، والسيرة كذلك أحاديث الأوائل والمثل الشائع بين الناس، و يقال سار بهم سيرة حسنة، والسيرة وفي التنزيل العزيز يقول سبحانه وتعالى "سنعيدها سيرتها الأولى"[1]، وسير سيرة أي حدث أحاديث الأوائل، وسار الكلام والمثل في الناس شاع فيقال هذا مثل سائر[2].

وقد ارتبطت لفظة السيرة في بداية تداولها بحياة الرسول "صلى الله عليه وسلم" ومعاملاته وأخلاقه ومعجزاته، ثم ما لبثت أن اقترنت بالمغازي، وكانت سيرة "ابن هشام" السيرة النبوية من أول ما كتب في سيرة النبي الكريم، ثم تداول هذا النوع مع الفتوحات الإسلامية، فكانت سير البطولات العربية تبعث الحمية والحماسة في نفوس الناس خلال معاركهم[3].

ب - السيرة الشعبية في الاصطلاح:

السيرة هي نوع سردي ينتمي الى باب الأدب الشعبي لأنها صناعة الوعي الجمعي أسهم فيها كل العامة، وهي نصوص طويلة يصفها الدارسون بأنها "ملاحم للبطولة والفروسية والجمال والحب معا، وهي فن قصصي يتداول بين العامة يقوم عادة على الإنشاد، وقد تحكي السير الشعبية حياة الجماعات كما أنها تشيد بإفراد الأبطال، وهي عادة ما تختفي بالواقعة والحروب والبطولة، تجمع في لغتها بين الشعر والنثر، ولذلك حدث جدل واسع حول طبيعة هذا النص بين الشعرية والحكائية[4]، حيث يرى الناقد المصري عبد الحميد يونس في هذا المجال أن السيرة الشعبية "ملحمة تقول بالشعر وتتحدث عن الحرب والبطولة وأنها صدى لحياة فاعلية، وأنها تثير كذلك في المتذوقين من المشاعر ما نجد له ضربا في الملاحم، ذلك لأن الطابع الغنائي يزاحمها من كل جهة وما نستطيع كذلك أن

---

[1] طه الآية 21 .

[2] ينظر، ابن منظور, لسان العرب, ضبط نصه خالد رشيد القاضي, دار الأبحاث ط 1, 2008 ص 427 .

[3] ينظر، ضياء الكعبي، السرد العربي القديم، ص160 وما بعدها .

[4] ينظر، محمد رجب النجار، التراث القصصي في الأدب العربي ، م1 ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت، 1995، ص 169.

نحكم عليها بالغنائية الخالصة و هي في موصوفها العام و في طريقة سردها تتخذ مظهر منافيا للغنائية"[1].

من هنا يتبين أن السيرة الشعبية نوع سردي أهم ما يميزه من الناحية الموضوعية البطولة والفروسية، سواء أكانت هذه البطولة واقعة حدثت فعلا في التاريخ أم كانت من صنع خيال الرواة مألوفة أم خارقة، أما من الناحية الشكلية فهي عمل يؤدى شفهيا وسط العامة، يقوم الراوي الشعبي بإنشاده مستعملا فيه كافة التقنيات ومدرجا ضمنه كل النصوص التي يحفظها، لذلك يصف كثير من النقاد السيرة الشعبية بالنص المنفتح كونها تشمل كثيرا من الأنواع السردية على الرغم من كونها قائمة على أساس خبري[2] .

لذلك كثيرا ما تضاربت تسميات هذا النوع السردي، فهناك من النقاد من يسميه بالسيرة الشعبية وهناك من يسميه بالرواية الشعبية وهناك من يقول بالملحمة نظرا لذلك التماثل الكبير الموجود بين السير الشعبية في الثقافة العربية والملاحم اليونانية، إلا أن المصطلح الأكثر تداولا هو السيرة الشعبية كونه يحيل بشكل أوضح إلى أن ما سيفعله الراوي في هذا النص هو تتبع لأخبار بطل معين أو فئة اجتماعية كما في تغريبة بني هلال.

2 - خصائص السيرة الشعبية :

لكل سيرة من السير التي عرفها التاريخ العربي موضوع أو وقائع معينة دارت حولها جميع أحداث السيرة التفصيلية، قامت عليه وانطلقت منه، وعلى الرغم من كونها تحمل عنوانا ذا صيغة متعلقة ببطل محدد أو فئة بارزة إلا أنها

[1] عبد الحميد يونس , الهلالية في التاريخ , الأدب الشعبي , مطبعة , جامعة القاهرة 1956 , ص 121 نقلا عن ، وسواس نجاة, السرد العربي القديم في الدراسات العربية الحديثة , رسالة دكتوراه , جامعة سيدي بلعباس , 2015 ص 56 .

[2] ينظر، محمد رجب النجار، التراث القصصي في الأدب العربي ، م1 ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت، 1995 ص 18 وما بعدها .

تضمنت مواضيع مختلفة، فلم تعرف سيرة وحدة عالجت موضوعا واحدا كونها نصا كبير الحجم قابلا للاتساع والزيادة، حمل العديد من التفاصيل، فبالاضافة إلى الموضوعات العامة لها هنالك موضوعات ثانوية يستدعيها الجانب الفني من السيرة أو يدخلها الراوي قصرا لأغراض معينة، فتساعد الرواة على تطوير أعمالهم و تمتيع متلقيها[1].

والمطلع على السير الشعبية العربية يجد فيها هذه الميزة، فمثلا عرفت سيرة عنترة بن شداد بأنها قصة حب كبيرة، سعى فيها ذلك الفارس الأسود للزواج من محبوبته ولقد جسدت لنا السيرة بطولات عنترة وشجاعته وقوته، إضافة إلى عصره وسماته وحتى ما قبله، وجاهليته بكل ما فيها، إلا أن محور الحب في هذه السيرة كان موجها لها نحو خط واحد، وهو الذي عُدّ محورها الأساسي و موضوعها[2] .

وقد اتبع الرواة في سردهم لمروياتهم السيرية الجمع بين ما هو واقعي تاريخي ما هو خيالي، محاولين إعطاء نوع من التاريخية عليها، وتعد هذه الظاهرة أيضا من أهم الظواهر في السير الشعبية العربية وأبرزها، فحاولوا بذلك جذب أكبر قدر ممكن من المتلقين، محاولين إقناعهم أن ما بين أيديهم هو حقيقة وما يجري فيه من أحداث وقع بالفعل، و طريقة دمجهم لهذين العنصرين يوهم السامع أن ما يسمعه من أحداث قد وقع فعلا[3].

كما أن كثيرا من الرواة قاموا بخلق شخصيات غير حقيقية تماما، كشخصية الأمير حمزة البهلوان، وحملوها ملامح وسمات البطولة كتلك التي لدى عنترة بن شداد، وكذلك الأميرة ذات الهمة، إذ إنه وكما يذكر المؤرخون لم يشهد التاريخ على وجود هذه الشخصية، والمتفحص لسيرتها يستطيع الشعور أن الرواة قد استنبطوا هذه الشخصية من شخصية "خولة بنت الأزور"، ومن هذا يبدو التمازج الكبير الذي أحدثه رواة السيرة الشعبية في سيرهم بين التاريخ والخيال، بحيث خلطوا بين كل ما هو خيالي وواقعي، جاعلين لكل شخصية دلالة فنية، فكل مطلع على هذه السير سيلاحظ معنى اختيار هذه الشخصيات بالتحديد، حسب

[1] ينظر طلال حرب بنية السيرة الشعبية و خطابها الملحمي في عصر المماليك , المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع, بيروت ط1,1999 ص 285.
[2] ينظر طلال حرب بنية السيرة الشعبية و خطابها الملحمي في عصر المماليك ص 285 .
[3] ينظر، المرجع نفسه، ص 295 وما بعدها .

الظروف المعايشة في تلك الحقب على نحو سيرة المهلهل و التي مثلت دعوة واضحة للثأر و الانتقام من الظالمين، وسيرة عنترة بن شداد هي عبارة عن دعوة واضحة لمطالبة الإنسان بحقوقه ودفاعه عن حرياته، ورمز للشجاعة و القوة ، و غيرها من السير التي اتخذت من الشخصيات التاريخية مرجعية لها، وجعلتها عبارة عن رموز استعملتها للدعوة للوقوف في وجه العدو، وإعادة استرجاع الأمجاد العربية، ولا يمكن القول إن ما قام به الرواة هو تشويه أو إفساد للأحداث التاريخية، و إنما يعده البعض اضافة وزيادة، كونهم تمكنوا من خلالهم وبطولاتهم التعبير عن واقعهم وظروفهم التي عايشوها[1].

ما يميز أيضا السيرة الشعبية هو الحضور المكثف للرواة، كونها نصا صنعه الوعي الجمعي من خلال تداولهم الشفهي للسير، اضافة إلى دورهم في توجيه بعضها بالاضافة إليها أو الحذف منها، وقد قسم الدارسون رواة السيرة الشعبية الى قسمين ، عرف رواة النوع الأول بحاملي التراث أي الذين ينقلون النص بصيغته التامة، ولا يضيفون إليه أي جديد فيلتزمون به كما سمعوه من الرواة الذين سبقوهم، أما النوع الثاني فهم الرواة المبدعون ، الذين يخضعون الرواية الى أنواع متنوعة من التحويل، ولهذا تكسر معهم النص الأصلي و هذا نظرا لكونهم يتداولونه شفهيا، فالراوي المبدع هو الذي يحقق الالتحام المباشر مع متلقيه و هو لا يدعي التعاليم على جمهوره، و انما يسعى الى الاتصال فيما بينه وبينهم [2].

والراوي يجلس في مكان مرتفع ليطل على جمهوره الذي يصغي اليه باهتمام بالغ أو في شكل حلقة، حيث أنه لا يكتفي الحكواتي بالرواية بل يقوم أيضا بوظيفة أخرى و هي الإنشاد، فيلتف حوله المستمعون مصغيين له باهتمام شديد، وهو يقوم بغناء القصة بتعبير وجهه وصوته وحركات جسمه، فهو يتفاعل بكل جوارحه أثناء سرده لقصة ما، وهذا ما يضفي على ما يسرده تشويقا اكبر اضافة إلى متعة القصة، وكلما ازداد عدد المستمعين، ازدادت حماسة الرواي و كان أكثر فاعلية وحيوية، فكان بعض الرواة يرتجلون فيضيفون ما تجود به قرائحهم،

[1] ينظر , طلال حرب, بنية السيرة الشعبية و خطابها الملحمي في عصر المماليك , المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع, بيروت, الحمراء , 1999 ,ص66

[2] ينظر , ضياء الكعبي , السرد العربي القديم ,الانساق الثقافية و اشكالية التأويل , ط1, 2005, ص287

ينضاف الى هذا أن الرواية الشعبية لم تقتصر على وجود راو واحد، إنما كان للراوي مساعدوه وقد يتعدون الثلاثة، وتميزت كل فرقة بأدائها الخاص وطريقتها[1].

من ناحية أخرى، كان للمرأة أيضا دور بارز في مجال الحكي، اذ كانت للنساء أعراف وطقوس معينة، وقد عرفت المرأة القاصة بتسميات متعددة كالملاية والعدادة والقوالة، وعرفت النسوة أيضا بسرد المتون الشعبية، بحيث تبدأ بالطقوس الحزينة، عندما تقرأ المرأة قصة من القصص كروايات أهل البيت وما حل بهم، وتخلل ما تقص بأبيات شعرية، وقد كان للمرأة دور في عملية القص منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، تمكنت من الاضطلاع بهذه الوظيفة وتأديتها بشكل تطور عبر الزمن، وخرج من مجال إلى مجال أوسع ، حيث وضعت طريقتها و لمستها في شتى المجالات[2].

كما أوجد الراوي من ناحية أخرى مجموعة من الحيل التي ماثل بها شخصيات مروياته، بحيث استطاع تغيير هيئته والتنكر بلبوس شخصياته، في محاولاته لإقناع المتلقين بصدق ما يرويه، وقد ذكر ابن الجوزي أنه كان منهم من يتبخر بالزيت والكمون ليصفر وجهه، وفيهم من يمسكه معه إذا شمه سال دمعه،وهذا كله يدخل كله في جانب إضفاء المتعة، ينضاف الى هذا أن القاص المبدع يعتمد كثيرا على محاكاة شخوص مروياته بالصوت و الحركة و الإيماء أيضا، وأكد ابن الجوزي أيضا أهمية استخدام القاص للزي اذ يعبر عن ثقافته إذ إن للسمات والمشاهد تأثيرا قد يكون أكبر من تأثير الألفاظ في القص، ولهذا نصح ابن الجوزي القاص بالإبداع في صناعة وهذا ينقص من التصنع والمبالغة ثم افساد جو القص[3].

لذلك كان الراوي سواء أكان مفردا أم متعددا المتحكم الوحيد في نص السيرة الشعبية وصيغته ومضمونه، وحتى متلقيه، لذلك لم يثبت على شكل محدد قبل تدوينه، والملاحظ للراوي في السيرة الشعبية يجد أن أهميته قد تكون أحيانا أكبر حتى من البطل نفسه، فالعهدة والمسؤولية التي تولاها واضطلع بها في هذا المتن

[1] ينظر،ضياء الكعبي، السرد العربي القديم، ص 280 وما بعدها .
2 ينظر , المرجع نفسه ص 297, 298
[3] ينظر , المرجع نفسه ,ص 306

تجعل منه أشبه بمالكه على الرغم من كونه متلقيا له أيضا تحول إلى فعل الرواية، فاشتهر الرواة بقدر ما اشتهر أبطال سيرهم .

3 - تأليف السيرة الشعبية:

يبدو للباحث في مجال الأدب الشعبي صعبا إلى حد ما فيما يخص تحديد مكان وزمان تشكل أي عمل أدبي شعبي، كونه نتاجا جماعيا، وخاصة بعد تدوينه، فظاهرة الرواية الشفوية كانت كفيلة بأن لا تبقي عملا على صيغة معينة، فكانت المرويات تنتقل من مكان إلى آخر ومن زمن لزمن، ومن راو لآخر يتغاير النص بالإضافة أو النقصان، وخاصة إذا تعلق الأمر بنص طويل كالسيرة الشعبية .

ينبغي في البداية الإشارة إلى أن السيرة في صيغتها الأخيرة هي التي وصلت إلينا مدونة، وأن النتاج الأدبي الشعبي لا يكتمل من البداية كونه في تجدد بسبب الرواية الشفوية، إذ إن السيرة استطاعت أن تجمع بين الأخبار التي رويت في عصور مختلفة، بداية من الجاهلية إلى عصر بني العباس، وفي أواخر هذا العصر تداولت ودونت كثير من السير الشعبية، ولهذا يمكن القول إن هذه الفترة هي الفترة التي نضج فيها النوع السيري الشعبي وانتشر بين عموم الناس وخاصتهم[1].

لم ينته دور الأدب أيام العرب وأخبارهم ووقائعهم بمجيء الإسلام وانتهاء الجاهلية، بل كان له دور في تشكل صنف المغازي فيما بعد، حيث عُد هذا الصنف من أوليات وإرهاصات السيرة النبوية الشريفة، ليزيد اهتمام العرب فيما بعد بمسألة تتبع أخبار النبي عليه الصلاة والسلام وروايتها، على أن المغازي نموذج من الأدب الملحمي، إلا ان اختلافه يكمن في كونه وليد ونتاج الثقافة الإسلامية، وأن عملية جمعها تختلف من حيث المقصد عن جميع الأخبار والسير، إذ إن جمعها يدخل في باب التاريخ وصناعته في حين أن جمع الأخبار قد يكون للتسامر فقط، على أن كليهما لم يسلما من الزيف والتحريف، وعلى الشاكلة نفسها تتبعوا أخبار العرب وأبطالهم وأيامهم وسعوا إلى جمعها في المرحلة التالية لصدر الإسلام، وبانتظام هذه الأخبار تشكلت السير الشعبية

[1] ينظر، ضياء الكعبي، السرد العربي القديم وإشكالات التأويل، ص 265 وما بعدها .

وتداولت بين الناس، فكان الرواة يتحدثون بسير عنترة والزير وسيف بن ذي يزن[1].

ومن هذا المنطلق يرى مؤرخو الأدب أن السيرة كانت تروى بشكل كامل بعد عصر المعتصم ويعود هذا إلى سببين أساسيين، أولهما السير كثيرا ما تضمنت أنها كثيرا ما كانت تروى للخليفة الواثق بالله طلبا منه، وذُكر أنه كان يستوقف الراوي في بعض الأمور يستفسر عنها، سواء تعلق الأمر بأحداث أم شخصيات أم مواقع [2].

ويشير مؤرخو الأدب العربي أيضا إلى فرضية أخرى مفادها أن السيرة كانت تروى مكتملة في العصر التالي لعصر المعتصم، هذا الافتراض يشير إلى أن رواة السيرة الشعبية حرصوا على أن تبلغ درجة عالية من السمو ببطولة الأبطال في عصر المعتصم، لأنه حسب ما ورد في تصور الرواة أن البطل يمثل الخليفة المعتصم كونه كان الأكثر حرصا من غيره من الخلفاء على تحقيق النصر مع الأبطال، وذلك من خلال بذله جهدا كثيرا لتحقيق هدفهم ممثلا في الدولة الإسلامية كلها، إلا أن هذا لا يعني من وجهة نظرهم أن رواية السيرة الشعبية انتهت بانتهاء خلافة المعتصم، بل بقيت تروى بعد ذلك قرونا[3].

وبما أن الرواية الشفوية بإمكانها أن تعرض النص المنقول لبعض التغيرات كالزيادة و النقصان، أو الحذف والإضافة هذا ما يحيلنا الى أن السيرة كذلك قد طرأ عليها كثير من التغيرات، عند تداولها وتناقلها من جيل إلى جيل، فانتقالها من عصر إلى عصر آخر يعني تولد نص جديد في كل مرة.

ولذلك يمكن القول إن السيرة الشعبية نص على الرغم من أن أحداثه جرت في أوقات سابقة إلا أن اكتماله لم يكن حتى أواخر العصر العباسي، وانتشر وتداول خلاله، وكان للغزو الصليبي والمغولي دور كبير في هذا الانتشار، كون السيرة الشعبية ملحمة بطولة كان عملية روايتها بين العامة والجنود مما يبعث على الحمية والحماسة في النفوس لمواجهة الغزو.

---

[1] ينظر, المرجع نفسه ، ص 260 وما بعدها .

[2] ينظر, نبيلة إبراهيم ,سيرة الأميرة ذات الهمة ,دراسة مقارنة القاهرة ط1 2016 ص72 73

[3] ينظر ، المرجع نفسه ، ص 70 وما بعدها .

كما ينبغي الإشارة من ناحية أخرى أن الاهتمام النقدي بنص السيرة العشبية جاء متأخرا إلى مقارنة ببقية الأنواع السردية، وينبغي الإشارة أيضا أن الأسباب السياسية التي أسهمت في تشكيل هذا النوع كانت مشابهة للأسباب التي دعت إلى النظر فيه نقديا، بداية مما أشار إليه الناقد سعيد يقطين بالنزعة التحررية والسعي إلى الخروج من سلطة الاستعمار التمرد على الحملات الغربية و الاستشراقية، فكانت البطولة العربية المتجسدة في السير مما يدفع إلى ذلك، إضافة إلى أن السيرة الشعبية نتاج وعي شعبي وفي هذه المرحلة المتأخرة برزت مقولة الشعب كمتحكم ومسيطر وصاحب ثورات، فكانت السيرة الشعبية أكثر نوع يجسد هذه المقولة وهذا الوعي الشعبي[1] .

لذلك يمكن القول إن ظهور السيرة الشعبية كنوع سردي مستقل لم يكن ظهورا اعتباطيا أو بدون هدف أو تطورا طبيعيا لنوع سابق، بل كان نتيجة عوامل سياسية أكثر منها أدبية، كما أنه تجدر الإشارة إلى كونه نصا انتظم وتشكل باجتماع وانتظام مجموعة من الأخبار الخاصة بشخص معين أو فئة اجتماعية معينة، عمل الراوي على جمعها وانتظامها وتناسقها لتشكل لحمة نصية واحدة .

4- لغة السيرة الشعبية:

على الرغم من أن السيرة الشعبية نص سردي إلا أن لغته تختلف عن لغة السرد إلى حد ما، ومحاولة الوقوف على أهم ملامح لغة السيرة الشعبية أمر صعب ذلك أنها نص لم يثبت على صيغة واحدة بسبب التداول الشفوي من ناحية، ولطولها وحجمها الكبير من ناحية أخرى، ولامتزاج النثر بالشعر فيها بشكل كبير جدا من ناحية ثالثة، لذلك إن أهم ما يميز لغة السيرة الشعبية الكثافة والإطناب، سواء من الناحية الشكلية أم من ناحية الشخصيات والفضاءات، ما يجعل السيرة نصا متعدد المستويات اللسانية، يحتمل كل أشكال التواصل العام والخاص كما

[1] ينظر، سعيد يقطين، الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1997، ص 86 وما بعدها .

تحقق في الثقافة العربية القديمة، وهذا أكبر اختلاف بين السيرة الشعبية بقية أنواع السرد العربي القديم[1].

تتميز لغة السيرة الشعبية أنها لغة مسجوعه تقترب إلى حد ما إلى لغة التخاطب عند أهل المدينة، إذ يرى كثير من الدارسين لهذه اللغة أنها لغة يمتزج فيها الأصل العربي ممثلا في الشعر على وجه التحديد بروافد شعبية مع بعض مخلفات اللهجات العامية التي تستخدم فيها، وبهذا الخليط والامتزاج اللغوي تشكلت لغة السيرة الشعبية وجعلت لنفسها ميزة مختلفة، ولذلك أهم ما يلاحظه الدارسون ويردون به على من قالوا إن السيرة الشعبية هي ملحمة هي ذلك الاختلاف الكبير بين السيرة والملحمة في سماتهما اللغوية كون السيرة شعبية اللغة في حين أن الملحمة فصيحة اللغة، واستخدم الرواة السجع في السيرة كوسيلة مساعدة للحفظ، ونظرا لأن العرب قديما عرفوا بالمشافهة وانتهجوا من السجع طريقا سهل عليهم تناقله[2].

كما استندت السيرة الشعبية كثيرا على الشعر الذي كان يأتي للاستدلال و الاستشهاد وحتى كأداة صراع داخل المعارك، اذ يخوض الأبطال معارك كلامية يتبارز فيها الشعراء بالأبيات الشعرية ، قبل بالسيوف، والتداول بين النثر والشعر وارد وشائع في السير الشعبية، ومن خلال هذا التداول تنتقل السيرة من عملية السرد إلى عملية حوارية بالشعر، كما أن استعمال الشعر في الحوار داخل النص السردي له دلالته الفنية والجمالية في تصوير الصراعات الموجودة في المحكي ثم تجسيدها من قبل الرواي[3] .

وقد أتى الشعر في السيرة على لسان الأبطال لإبراز مواقفهم من الحياة والأحداث، وأن الراوي استحضره للتعبير عن الانفعالات النفسية في المواقف التي يكون فيها الشعر أصدق دلالة و أبعد أثر و أشد تأثيرا ما يفرض عليه في الأخير أن يكون راوية للأخبار وللشعر أيضا، إلا أنه يجدر الإشارة أن الشعر يضطلع بوظائف داخل المتن السيري إلا أنها لا تطغى على العمل السردي

[1] ينظر، وسواس نجاة، السرد العربي القديم في ضوء الدراسات العربية الحديثة، ص 83 .
[2] ينظر، ضياء الكعبي، السرد العربي القديم، ص 280 وما بعدها .
[3] ينظر , فاطمة حسين المصري , الشخصية المصرية من خلال دراسة الفولكلور المصري , القاهرة , الهيئة العامة للكتاب , ص 93/91.

الأصيل، ولكنها لا تعاكس السرد وإنما تساعده وتكمله، ولو حذف الشعر من كل السير لما غير هذا من قيمتها السردية[1].

فالسير الشعبية تقوم في الأساس على مبدأ أخلاقية قيمية، أي انها تعكس الخلق العربي والمثل العليا، اما في تصرفات الأبطال أو طريقة سير الأحداث ، و سير الله للأحداث و المعجزات التي يتحصل عليها الأبطال بسبب أفعالهم الحسنة و ايمانهم.

5- السيرة الشعبية بين الثقافة والحكاية:

أثرت البدايات للسيرة الشعبية بشكل واضح في مسارها وتوجهها كنوع سردي مستقل وفي تشكل بنيتها السردية والثبات على تلك البنية، وكذلك في تفاعلها مع كثير من الأنواع السردية الأخرى، والأشكال المعارف المختلفة التي يمكن القول إنها تنتمي إلى ذلك الباب الواسع الثقافة أو المعرفة التي يمكن أن تقدم مصداقية ومشروعية لهذا النص وتجعله قابلا للتصديق في تلك المرحلة المتقدمة.

كما تعد السيرة النبوية النموذج الأصلي للشكل العام الذي تميزت به السيرة الشعبية، وإذا كانت السيرة النبوية المنهج الأساسي الموجه لباقي السير الشعبية فإن ما دفع بهذه السير إلى الاكتمال والنضوج والبروز على ذلك الشكل هو تلك النماذج الأولية من الملاحم العربية القديمة، التي عدت على أنها موروث شعبي له أصول ممتدة منذ آلاف السنين و مثال ذلك الملحمتان اللتان عرفتا في ذلك الزمن ملحمة الخلق البابلية وملحمة جلجاميش، التي عرفها العرب قبل الإسلام وعدها البعض المعلقة العربية الأولى[2].

ويمكن القول إن سيرة عنترة بن شداد بوصفها واحدة من النماذج الملحمية المشابهة للملاحم القديمة، هي واحدة من أكثر السير التي وقف عليها الباحثون المحدثون عربا ومستشرقين يبحثون في نسبتها إلى مؤلف واحد، حيث يشير الناقد محمود ذهني في أصل هذه السيرة فيقول بأن كاتب سيرة عنترة هو فرد واحد له حاسة قصصية وموهبة روائية، له معرفة قبلية واسعة فيما يخص هذا الفن، وقد قال إن سيرة عنترة أول ما كتبت كان في العصر الفاطمي، ولا علاقة

[1] ينظر , محمد حسين عبد الحافظ , الحوار المتمدن , المجلس العلمي , مجلة الأيام , سبتمبر 3, 2019, سوريا، ص 67 .

[2] ينظر, ضياء الكعبي, السرد العربي القديم , الأنساق الثقافية و اشكالية التأويل, ص184، 185.

لأمر الخليفة العزيز بذلك، ودليله فيما قاله، فيقول أنه استشف شخصية كاتب سيرة عنترة، يميز من خلاله أربعة خصال يحددها في[1]:

1- خبرته الواسعة بأيام العرب وحروبهم و وقائعهم ونوادرهم، أحداثهم وتاريخهم وعاداتهم وطباعهم .
2- خبرة واسعة بأحوال الأمم غير العربية من فرس و روم و أحباش.
3- خبرة بالنفس البشرية ومعرفة بأحوال جمهور المتلقين.
4- كاتب متفنن، له حاسة حقيقية ، وموهبة روائية ، و تمرس طويل في هذا الفن.

في المقابل كانت مسألة البعد الثقافي أو المعرفي للسيرة الشعبية واحدة من الإشكالات التي أثارت جدلا حول هذا النوع، وإن كان يمكن الاعتماد عليه في كتابة التاريخ مثلا أم يجب النظر إليه على أنه نص سردي يمتع صاحبه فحسب، ومن هذا الإشكال تفرعت إشكالات أخرى أثارتها دراسات متعددة منها واقعية الشخصيات والأحداث التي تضمنتها تلك السير ورواتها، وسبب تأخر هذه السيرة في الظهور في الأدب العربي على الرغم من أن الملاحم وجدت كذلك في الثقافة العربية، فبين تدوين التاريخ وتدوين السيرة الشعبية أغراض مختلفة يمكن أن تحدد توجه كل واحد من هذين النصين[2] .

وينطلق معظم الباحثين في دراستهم للسيرة الشعبية ببعديها الثقافي و الحكائي من أن معظم السير قد شهدت تغيرا وتحولا في بنيتها وأسلوبها، كما حدث مع نص "ألف ليلة وليلة" وكان ذلك نتيجة لتداولها وتناقلها شفاهه من وسط إلى آخر، واستمرت على هذا التغير حتى اكتسبت بنيتها صفة متحولة.

في المقابل عدت السير الشعبية نصا أشبه بالنص المفتوح القابل للزيادة والنقصان، والاختصار أو الإطالة من طرف الراوي، وظلت على هذه الهيئة والصفة المتحولة والمتناقلة شفاهه مدة طويلة إلى أن وصلت إلى عهد التدوين، وتحولت إلى نص ثابت على صيغة، ولهذا كثيرا ما يصف الباحثون نوع السيرة الشعبية بالاستناد إلى هذه الظاهرة بأنها نص منفتح على مختلف الأنواع و

[1] ينظر محمود ذهني , سيرة عنترة ص 132 133, نقلا عن ضياء الكعبي , السرد العربي القديم , الأنساق الثقافية و إشكالية التأويل ص 324.
[2] ينظر، وسواس نجاة، السرد العربي القديم في ضوء الدراسات العربية الحديثة، ص 52 وما بعدها .

المعارف الأخرى، ووسيطا تلتقي فيه، فالراوي وهو يقوم بالحذف أو الإضافة أو التأكيد على بعض الأجزاء التي لم يؤكد عليها من قبل، وهذا التغير الذي يقوم به الراوي يعود الى مزاجه وخلفياته السياسية والأنتروبولوجية والتاريخية، وكذا على مجلس الحضور من حيث التكوين أو المزاج أو الذوق، فالسيرة الشعبية لم تسلم من التحول والتغير والإضافة نظرا لما مرت به على ألسنة الرواة، فمهما بلغت براعة الراوي في النقل بالتدقيق يستحيل أن تكون السيرة صافية تماما ، فلابد من أنه قد أضاف شيئا و حذف آخر ، سواء كان ذلك بقصد أو بغير قصد ، وهذا ما أضاف سحرا للسير[1].

ومن هنا يمكن القول إن السيرة الشعبية قبل أن تكتمل ظلت لفترة طويلة جدا –حتى العصر الحديث- نصا مفتوحا قابلا للتعديل بسبب تداولها الشفهي الذي لم يبقها على صيغة واحدة، ولا على رواية واحدة، فمهما كانت ذاكرة الراوي قوية إلا أن هذا لم ينف حدوث بعض التغيرات في النص قبل تدوينه في كل مرة يروى فيها في أوساط العامة تحديدا.

[1] ينظر , ضياء الكعبي , السرد العربي القديم , الأنساق الثقافية و إشكاليات التأويل ط1-2005- ص325

الفصل الثاني

جماليات التداخل بين التاريخ والتخييل في السيرة الشعبية العربية

1- مرجعيات السيرة الشعبية :

استندت السيرة الشعبية في تشكلها على مجموعة المرجعيات والعناصر التي أسهمت بأشكال مختلفة في تنوع هذا النص وثرائه، وكان لها الدور الأكبر في صياغته ودراسته فيما بعد، وأسهمت في جعل هذا النص على قدر من الجمالية التي تجذب المتلقين القراء اليه، ولهذا يمكن تحديد هذه مرجعيات السيرة الشعبية العربية في مرجعيتين أساسيتين هما التاريخ أو الواقع والمتخيل في مستوييه المألوف والعجائبي.

ولكون السيرة الشعبية نصا سرديا عربيا منفتحا على كل الأنواع والأجناس الشعرية والسردية والخبرية، إذ إنها وفي شكلها العام مجموعة من الأخبار الخاصة بفئة اجتماعية أو شخصية معينة انتظمت في شكل نص مطول، ما يجعل إشكالات كثيرة تحوم حوله خاصة عندما يتعلق الأمر بالأخبار الواقعية أو المتخيلة، وقد يتبادر إلى الذهن إشكال إن كانت السيرة الشعبية نصا تاريخيا بإمكانه تدوين التاريخ العربي القديم، ام أنها نص سردي يقوم بإمتاع قارئه ومتلقيه كأي نص سردي؟

ومن مرجعيات السيرة الشعبية التي أسهمت في تشكلها الواقع، وهو أهم مرجعية استندت إليها السيرة في تشكلها، ذلك أن كل السير العربية مستوحاة من الواقع العربي، بأبرز أبطالها وشخوصها وأحداثها، على الرغم من تعرضها للتحريف، وكان للواقع الذي عايشه الرواة في تلك الفترة أثر كبير على روايتهم للسيرة الشعبية، فعلى الرغم من أن السير عرفت منذ القدم إلا أنه وبعد العصر المملوكي شهدت اكتمالها بسبب تدوينها واستحالة تدخل الرواة فيها، إلا أنها تأثرت في هذه الفترة بمختلف أحداثها، بداية بالحروب التي خاضوها[1].

في مقابل ذلك فقد عرفت الطبقات الشعبية معاناة كبيرة وعاشوا حياة بائسة من فقر وعنصرية وانقسام المجتمع إلى طبقات كانوا هم الطبقة السفلى التي فيها الظلم و التعسف، إلا أن هذا الوضع كان له الدور الأكبر لدى هذه الفئة الدور الكبير في إنشاء أدبياتهم الشعبية، فكانت هذه المعاناة الاجتماعية والاقتصادية دافعا في تقويم السير التي صنعوها والاحتفاء بها وجعلها نموذجا أدبيا لرفع

[1] ينظر, طلال حرب, بنية السيرة الشعبية و خطابها الملحمي في عصر المماليك, المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع, بيروت، 1999, ط1 ص 17

التحدي والحماسة والحمية، حيث ساعدت على صقلها والإضافة لها، كما كان لهذه الطبقة الشعبية كثير من العادات والأعراف التي آمنوا بها و صدقوا رموزها وجسدوها فيها، لترسم هذه السير الواقع العربي بمختلف تفاصيله[1].

ولهذا يمكن القول إن تطور السيرة الشعبية وبروزها وازدهارها يرجع إلى ذلك الاحتكاك السياسي الحربي، الذي قام بين العرب غيرهم وتحديدا الصليبيين، والحملات التي خضعت لها البلاد العربية، وبهذا اتصفت السيرة الشعبية بالبطولة والنصر الذي حققه العرب في معاركهم، وقد أشار طلال حرب إلى أن الغزو الصليبي والمغولي الذي شهدته الطبقات الشعبية في نهاية العصر العباسي كان بمثابة الدمار الذي لحق بالأمة العربية، وهذا الوضع الذي خضع له الناس سواء كانوا من الخاصة أم العامة، إضافة إلى آمالهم في انتظار بطل عربي يسعف الأمة وينقذها من الأعداء[2].

ولذلك يشير طلال حرب إلى أن ظهور الأبطال والبطولة العربية عموما في هذه الفترة كان له دور فعال في تطور البعد الملحمي في السيرة الشعبية، خلال الحروب الصليبية، وبهذا فالسيرة الشعبية حققت نجاحا مبهرا وأخذت صفتها النهائية التي تجذب أسماع المتلقين العرب، الذين تعودوا على تلقي أخبار الشجعان في المعارك التي قادوها أثناء تلك الحروب[3].

ومن خلال هذا الاستناد المكثف للواقع والتاريخ عموما نسبت السيرة الشعبية إلى باب الأدب الشعبي الملحمي، فتضمنت انشغالات عامة الناس بما في ذلك ثقافاتهم وآدابهم وسلوكياتهم المختلفة، على الرغم من أنها شهدت جملة من التغيرات والتعديلات التي طرأت على هذا التاريخ، وكان ذلك نتيجة انتقالها الشفهي بين الرواة الشعبيين، ودامت على هذا التغيير مدة طويلة نتيجة ما تضمنته حياتهم الاجتماعية والأوضاع التي عاشوها ومروا بها في بيئاتهم المختلفة.

فالسيرة الشعبية أكثر نوع يجسد ذلك التمازج بين التاريخي والمتخيل في السرد العربي القديم حسب ما أشارت إليه كثير من الدراسات العربية الحديثة، إذ

[1] ينظر , طلال حرب , بنية السيرة الشعبية ص 17، 30

[2] ينظر، المرجع نفسه، ص 15 وما بعدها .

[3] ينظر, نجاة وسواس, السرد العربي القديم في ضوء الدراسات العربية الحديثة ص 44.

إن السيرة الشعبية تنطلق من قاعدة تاريخية ليدخلها الرواة في متاهات الخيال، فهي تقوم برواية أحداث قد وقعت في زمن ما، وفي فترات مختلفة من تاريخ الأمة العربية، إما قبل مجيء الإسلام كسيرة عنترة بن شداد أو سيرة الزير سالم، أو روت أحداثا وقعت وجمعت ما بين فترة قبل وبعد الإسلام كسيرة بني هلال، وتبقى الآراء متضاربة حول هذين البعدين التاريخي والتخيلي، فالسيرة قبل ما تعرضت له من تعديلات وإضافات قبل تدوينها اعتمدت على أصول حقيقية من حيث الأحداث والأبطال حسب ما جاء به فاروق خورشيد وعبد الحميد يونس وغيرهم، وبتطعيمها بالخيال أصبحت سردا محلى بالتاريخ أو تاريخا مزورا بالخيال[1].

إذ حملت السيرة الشعبية بين سطورها وفي حجمها الكبير كثيرا من الأحداث التي تراكمت عبر التاريخ في المجتمع العربي، كما كان لها دور آخر أيضا في تصوير الطبقات الاجتماعية وما يحدث فيها من صراعات مختلفة، سواء ما تعلق بالجانب السياسي أو فيما كان يخص الإنسان العربي الذي عانى من هذه الصراعات التي مست طموحاته وأهدافه، في سعيه إلى صناعة واقع مختلف متطور ومتحضر، ومن خلال هذا، يبدو أن السيرة الشعبية في طابعها تستند بصفة عامة إلى التاريخ، وتأخذ منه الأبطال الحقيقيين وتقوم بالاحتفاء بهم بشكل مبالغ، وهذا ما أشارت إليه الناقدة نبيلة إبراهيم في أن الرواة في السيرة الشعبية يقومون بتلوين وتزويق وتشكيل ما هو مناسب لخيال الشعب وطموحاته، لأن السيرة لا تقوم برواية التاريخ رواية علمية موضوعية وإنما روايته وفق رؤيا شعبية يجب وصفها بالرؤيا العامة[2].

وبما أن السيرة الشعبية موروث شعبي فالإنسان يحاول التعايش مع ما هو واقع في عصره لكي يستطيع التعبير عما يجول بخاطره من خلال هذه السير، كما تشير " نبيلة إبراهيم "من خلال اطلاعها "لسيرة الأميرة ذات الهمة" بأن الراوي قد أضاف شخصيات تاريخية بطولية جديدة تمثل أدوار مختلفة، وتكون أحيانا هذه الأدوار إما مساندة أو متضادة، و بذلك فالبحث عن الجدل بين البعد

[1] ينظر , نجاة وسواس, السرد العربي القديم في ضوء الدراسات العربية الحديثة , ص45

[2] ينظر، نبيلة إبراهيم، سيرة الأميرة ذات الهمة، دراسة مقارنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ت، ص 60 وما بعدها.

التاريخي الذي هو أصل للسيرة الشعبية والتخيلي الذي تعرضت له السيرة الشعبية لم يكن له فائدة كبيرة في دراسة هذا النوع، بل شكل منها موقفا سلبيا وعدت نصا تاريخيا مطعما بالتخييل، فرواية هذه السير الشعبية وإدخال عنصر الخيال فيها لم يكن بهدف إعادة إحياء التاريخ والتذكير به، بل كان من أجل غايات أخرى مختلفة متعلقة بالواقع العربي[1].

واستنادا إلى هذا فإن السير الشعبية من خلال اتخاذها البعد التاريخي قاعدة وإعادة صياغته سرديا حسب ما هو متوافق مع روح العصر الذي ظهرت فيه، كانت نوعا من التمرد والخروج عن السلطة التي فرضت نوعا من الحد على الرواة، فالرواة في هذه الفترة أحذوا بسرد كل ما هو مغيب من قبل السلطة، مستخدمين بذلك التغيرات التي تشمل الأحداث والشخصيات معا، مع ذكرهم لكل ما هو ديني واجتماعي[2].

في المقابل، ومن خلال الدراسات المقدمة حول السيرة الشعبية يصر عبد الحميد يونس -الذي اتخذ السيرة الهلالية دراسة له- على المادة التاريخية الماثلة في السيرة الشعبية، لهذا استند في معظم دراساته على المنهج التاريخي، ولهذا يبدو من خلال استناده لهذا المنهج، كان من أجل البحث عن نسب بني هلال منذ بدايته إلى غاية نهايته، فكان البعد التاريخي لهذه السيرة محل اهتمامه، ومن خلال ما تم طرحه حول مرجعية السيرة من كونها ذات مرجعية تاريخية أم تخيلية أم أنها مزيج بينهما، فهنا يمكن القول إن السيرة على الرغم من كونها ذات بعد تاريخي إلا أن وظيفتها سردية محضة مع أنها تقوم على إحياء أحداث تاريخية واسترجاع ذكريات ماضية والكشف عن ظروف مختلفة عاشها الإنسان في زمن مضى، وكيف تطور معها، لذلك فالبعد التخيلي هو مجالها الذي تهدف من خلاله إلى المتعة والألفة و أخذ العبرة من الحكايات التي تكون من صنع الخيال، أم أنها مزيج بين التاريخ والتخيل الذي يهدف إلى تشويق المتلقي، وإثارة

[1] ينظر , نجاة وسواس , السرد العربي القديم في ضوء الدراسات العربية الحديثة 46
3 ينظر، المرجع نفسه، ص 46

الحماسة فيه من خلال الأحداث التاريخية، وعلى هذا الأساس فإن إدراجها ضمن هذين البعدين أمر طبيعي باعتبارها نوع سردي قابل للتغيير والتطور[1].

ومن هنا يتبين لمتلقي السيرة الشعبية العربية أنها جمعت بين التاريخ والخيال لا لأنها نص منفتح على مختلف الأنواع فقط، بل لأن بنيتها بنية قابلة للتجدد بتغاير البيئات التي تروى فيها، ففي كل مرة كانت تروى إلا واختلفت مضمونا وصيغة، على الرغم من أنه اختلاف تتحكم فيه خلفيات متعددة .[2]

2- السيرة الشعبية والحكاية العجائبية:

تعد السيرة الشعبية خطابا أدبيا سرديا متواترا بالرواية الشفهية عبر الأجيال، وتحكى بطريقة إنشادية، فاختلطت أحيانا بالحكاية الشعبية، هذا ما أدى بالعديد من النقاد والباحثين إلى التفريق بينهما، في حين جمع البعض الآخر بينهما تحت وصف واحد، فقد أطلق الناقد فؤاد حسنين علي على النوعين الحكاية الشعبية والسيرة الشعبية تسمية القصص الشعبي وقام بتصنيف السيرة الشعبية على أنها قصص إسلامي، ورأى كذلك الناقد عبد الحميد يونس أن كل حكاية شعبية هي سيرة شعبية، وذكر أن مصطلح الحكاية الشعبية مصطلح جامع لكل الأنواع السردية سواء كانت حكاية أم أسطورة ، وبالاستناد إلى معيار الحجم أو طول السيرة الشعبية مقارنة ببقية الأنواع السردية العامة والفصيحة استطاع ان يميز بين الحكاية الشعبية و السيرة، إلا أنه ظل يستعمل مصطلح الحكاية الشعبية للدلالة على السيرة أيضا[3].

ومن بين الباحثين الذين حاولوا التأسيس للاختلاف الماثل بين الحكاية والسيرة فاروق خورشيد، الذي أوجد جملة من الفروقات بين الحكاية الشعبية والسيرة الشعبية، فالحكاية الشعبية نوع أدبي وجد منذ مطلع التاريخ، استمدت وجودها من المترسبات الشعبية العربية في الجزيرة وغيرها من أجزاء المنطقة العربية، و اهتم بها الحكواتيين اهتماما بالغا، في حين رأى أن السيرة الشعبية تميزها جملة من المراحل التي تمر بها شخصية البطل في السيرة، حددها في :

---

[1] ينظر إبراهيم عبد الحافظ , دراسات في الأدب الشعبي ص65

[2] ينظر المرجع نفسه ص 66

[3] ينظر, ضياء الكعبي السرد العربي القديم الأنساق الثقافية و إشكاليات التأويل , ص 168 وما بعدها .

مرحلة التكوين، مرحلة الفروسية، المرحلة الذاتية، المرحلة الأسطورية أو الملحمية، وآخر مرحلة هي مرحلة الامتداد[1].

وعلى الرغم من كل ما قام به خورشيد فيما يخص التفريق بين الحكاية الشعبية والسيرة الشعبية، إلا أنه لم يشر إلى عنصر مهم في الحكاية الشعبية هو الشفاهية التي تعطي لها ميزة خاصة، التي تجعلها تنتقل بين أواسط مختلفة، والتي تجعلها تتميز عن الحكاية المدونة، حيث إن عنصر الشفاهية بوصفه نسقا ثقافيا مشتركا ومتحكما في السيرة والحكاية الشعبية، وكان لهذا النسق دور فعال في تطوير هذين النوعين و ودمجهما في منظمة الثقافة الشعبية العربية[2].

في نص السيرة الشعبية امتزج عالما الحقيقة والخيال امتزاجا كبيرا، ومن غير الممكن الفصل بين هذين العالمين فيها بأي طريقة، إذ إن تلك الخيالات وتلك الإضافات التي اخترعها رواتها ومزجوها بالشخصيات التي أخذوها من الواقع أضافت سحرا مختلفا براقا على قصصهم، ومنحتهم جاذبية دفعت كل متطلع إلى البحث عنها و التعمق فيها حتى في هذا العصر الحديث، فكم من الدراسات التي قدمت حول البعد الخرافي أو الأسطوري في السيرة الشعبية العربية.

تضمنت السير الشعبية كثيرا من الشخصيات التاريخية التي سعى الرواة من خلالها إلى تأكيد حقيقة ما يروونه وإعطاء مشروعية له، فكثيرا ما ذكر فيها الأنبياء كما في سيرة سيف بن ذي يزن فنجد منهم سيدنا نوح عليه السلام، وسيدنا ابراهيم الخليل، ويوسف عليه السلام، وذكر كذلك كثير من الخلفاء كهارون الرشيد و المعتصم والملوك كسرى والملك سيف أرعد، وأيضا من فرسان العصر الجاهلي نذكر اللقيط بن زرارة والحارث بن ظالم وعمرو بن ود العامري وعروة بن الورد وغيرهم[3].

كما تضمنت السيرة الشعبية في جانبها الواقعي كثيرا من العيارين والشطار، خاصة في العصر المملوكي في أواخر العصر العباسي، فقد جسدت السيرة الشعبية العديد من الأزمات خاصة العصر المملوكي كما سبق الذكر، وجسدت أيضا الصراعات كالصراع على السلطة، وزوال السلطة من يد العرب وضياعها

2 ينظر , المرجع نفسه ص 167 168

[2] ينظر ,ضياء الكعبي السرد العربي القديم , الأنساق الثقافية و إشكاليات التأويل ص168 169

[3] ينظر, طلال حرب, بنية السيرة و خطابها الملحمي في عصر المماليك , المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع , بيروت ط1 1999, ص 284

منهم و انتشار الشرور والظلم والاستعمار الذي تعرض له المسلمون في تلك الحقب ، و ما مرو به من استبداد و الصراعات المغولية الإسلامية و حالات الفقر، و الجوع التي آل لها المسلمون بعد العز و الغنى و تدهور حياتهم بشكل كامل.(1)

وعلى الرغم من كل ما ورد في السيرة حول هذه الأمور فإن الراوي الشعبي لم يعرضه إلا بعد أن دمج بخيال واسع وخوارق وعجائب الأشياء، وكان لهذه الإضافات عدة أسباب منها ما هو سياسي وآخر اجتماعي وتجاري، حتى فيما يخص الجانب التجاري فقد تعمد الرواة الدمج والإضافة لجذب الأسماع وسحر الألباب ونظرا لأن السير كانت تلقى في المجتمعات بشكل شفهي، فقصد الرواة إضافة كل ما يعجب له المتلقي و يدهشه[1].

أما من الناحية التخييلية فيشير تزفيطار تودوروف في كتابه "مدخل إلى الأدب العجائبي" إلى أن العجائبي قد يكون نوعا مستقلا بذاته، كما يمكن له أن يتمازج ويتداخل ضمن نصوص سردية أخرى، حيث يقول فيه إن ما "يجب إن يدرس في موضوع العجائبيات النصوص التي لها مرجعية تاريخية مثل الملاحم والحكايات الشعبية والنصوص التي دارت حول شخصيات تاريخية، كما يشير توردورف إلى أن العجائبي هو ذلك التردد الذي يعيشه الفرد الذي لا يعرف سوى قوانين الطبيعة في مواجهته لحدث فوق طبيعي في ظاهره، وأن هذا الفرد سيجد نفسه أمام حلين إما أن يعد مجرد خيال ليحافظ على قوانين الطبيعة كما هي، وإما أن يعده حدثا خارقا ليغير قوانين الطبيعة من خلاله، ليدخل بذلك دائرة العجيب، كما يرى تودورف أن للعجائبي ثلاث مستويات العجيب والعجائبي والغريب، على أن الفارق بينهما فارق زمني يكون من خلال مدة انتقال من الغريب إلى العجيب وتفسيره أو قبوله ليدخل إلى دائرة العجائبي[2].

وقد زخرت السيرة الشعبية بالمخلوقات العجيبة وبعض الأحداث التي لا يمكن تفسيرها، ولعل النصيب الأكبر من هذا الوجود كان للجن كما تمظهر كثيرا في سيرة سيف بن ذي يزن، حيث أنهم أبرز أنهم يعيشون في قبائل ولهم حكام

[1] ينظر , المرجع نفسه، 280 وما بعدها .

[2] Voir , T.Todorov , introduction a la littérature fantastique , p 07 ، نقلا عن
وسواس نجاة، السرد العربي القديم في ضوء الدراسات العربية الحديثة، 217 ، 2018 .

يحكمونهم حالهم حال البشر، ويختلفون عنهم فقط في الخلق، فهم مخلوقون من نار في صورة مختلفة عجيبة له قدرات خرافية في التحول والاختفاء والسفر السريع، كما وجدت في السيرة مخلوقات كثيرة خيالية، مثل الغيلان الذين يعيشون كما صور الراوي في السيرة في أماكن معينة مثل وادي الغيلان، يأكلون اللحوم البشرية، إضافة إلى مخلوقات عجيبة أخرى متعددة، حيث إنه كان للملك سيف حصان برأسين مثلا، كما يجب الإشارة إلى الكهنة والحكماء أو السحرة فكان لهم كذلك لهم أيضا قدرات خراقة تجعلهم ذوي سلطة حتى على الجان فيحترمونهم ويقدرونهم[1].

وكما كان للرواية التاريخية في التراث مجموعة من المميزات والخصائص، فإن للحكاية العجائبية دورها وخصائصها كذلك، وهي في الأساس تتجه لطريق بث المتعة التي تعد من أبرز خصائص والمساعي التي تسعى السيرة إلى تحقيقها، فكل ما هو عجيب يدعو بالضرورة للإمتاع والدهشة، وكل الرواة في سردهم لحكاية ما تجدهم يقومون بالإضافة والنقص، ومن أهم ما يضيفونه العجيب وذلك لإضفاء ذلك الفضول والمتعة في نفس المتلقي وجذب انتباهه[2].

كما تميز النص العجائبي كذلك في سيرة سيف تحديدا بالإضافة إلى وجود مخلوقات غريبة قيامها بجملة من العادات العجيبة التي تبعث على الحيرة والدهشة، ومن أبرزها وجود عمالقة فيها لهم عادات مختلفة، منها أنهم يكرمون الضيف على طريقتهم الخاصة، إذ إنهم يدعونه ثلاثة أيام بدون طعام أو شراب و بعد ذلك تصنع له وليمة ذات قدر وقيمة عالية فيأكل جميع الطعام ولا يبقى منه شيء، وإذا بقي منه لقمة واحدة أهلكوه في وقته ولم يبقوه [3].

ويمكن القول إن هذه العادات الغريبة التي تدخل ضمن التفاصيل الصغرى للسيرة الشعبية كان لها دور ثانوي فقط، استعملها الرواة في سيرهم لبعث الدهشة لدى القراء.

---

[1] ينظر , صفاء دياب , تمثيلات العجيب في السيرة الشعبية العربية، العراق 2008 ص 120 وما بعدها .

[2] ينظر، المرجع نفسه، ص 125 .

[3] ينظر, لؤي حمزة عباس , بلاغة التزوير فاعلية الإخبار في السرد العربي القديم , الدار العربية للعلوم ناشرون , لبنان , ط1 ص167 168

أما بالنسبة لمجموعة الأدوات السحرية أو الهدايا كما عرفت في السير فكانت عنصرا أساسيا تواجد في كافة السير الشعبية، ولا يمكن من ناحية أخرى إنكار إبداع الرواة واجتهادهم في جعل هذا الخيال على صلة وثيقة بالعقل، مما أرسي في عقول المستمعين وجودها وتصديق أحداثها، والتعامل معها وكأنها واقعية صدق فيها الرواة، ولقد خص رواة السير الهدايا الممنوحة فقط للأشخاص مميزون ميزهم صفاء قلوبهم، وسلامة إسلامهم وصحته وهي هبة له وسمة منذ الأزل وهو في أغلب الأحيان يكون من سلالة الأنبياء والرسل، فالسيرة ربطت إعطاء الهدايا السحرية لأشخاص معينين[1].

إنه ومهما كثر العجائبي في السيرة ، فإن الجانب الديني يعد الأبرز و الأكثر أهمية على الرغم من أن العجائبي له تأثير كبير في السير التي أتت بعد الإسلام مقارنة بمسألتي البطولة والحماسة.

- **الرواة في السيرة الشعبية:**

تتمتع النصوص السردية بخاصية فريدة لا تتمتع بها بقية الأنواع والأجناس ألا وهي فعل الرواية، إذ إن لكل نص راويه بملامح ووظائف تخصه دون باقي النصوص، وسواء علم هذا الراوي أم كان مجهولا إلا أن النص السردي لا يستقيم دونه كون هذا النص قائم على مبدأ الخبرية الذي يحيل إلى فعل الرواية وتداولها شفهيا أم كتابيا، والسيرة الشعبية كونها نصا سردياً هي أكثر الأنواع السردية المحافظة على هذا المكون، و لكل راو طريقته الخاصة التي يسرد بها ساعيا من خلالها إلى التأثير على السامعين وجذب انتباههم، ويعد الراوي أهم عنصر في السيرة الشعبية العربية، إذ من خلال طريقته في السرد تتضح معالم القصة واهميتها وقدرة وكفاءة هذا الراوي على جعل المتلقين ضمن نسيج عمليته السردية.

وقد اتسم الرواة في الثقافة العربية القديمة وتحديدا فيما يخص نقل الأخبار والروايات بعدة ملامح وتداولوا عدة وظائف، ولعل أهمها التفاخر حين الإنشاد بالأنساب والتاريخ والقبيلة، مثلما نلحظ هذا في السير الشعبية العربية، ففي

[1] ينظر, طلال حرب , بنية السيرة الشعبية ص 314 .

السيرة الهلالية مثلا لطالما قام الراوي بتمجيد النسب الهلاليين في تغريبتهم، كما أن أهم ما يميز رواة السيرة الشعبية قدرتهم الفائقة على تغيير أنفسهم استنادا لما يوافق الشخصية وملامحها وأفعالها في المحكي، فتراه يغير ملابسه ونبرة صوته ويماثلهم فيما يفعلونه ويقولونه، ولم يكن هذا التمثيل إلا لضمان تداول تلك السيرة من ناحية واشتهار الراوي من خلالها[1].

من ناحية أخرى أيضا الكثير من منشدي السيرة الشعبية آمنوا أن السيرة نزلت عليهم موحى بها في المنام، إذ إن معظمهم الرواة من العامة الذين لم يحسنوا لا القراءة ولا الكتابة، وأنها جاءت تناقلا من السلف إلى الخلف ولهذا تشاركوا شخوص وأبطال سيرهم في ملامحهم، والسيرة الشعبية على الرغم من اختلاف كثير من التفاصيل في رواياتها الشفوية إلا أن فكرة الإلهام والإنشاد ظلتا وسيلتين يسعى من خلالهما الرواة إلى تداول أكبر لهذا النص السردي[2].

ومن خلال هذا يبدو أن حضور الراوي في السيرة هام وأساسي، وهذا ما يلاحظه كل متلقي السيرة الشعبية، فالراوي في السيرة الشعبية يتحكم في عنصرين مهمين فيها، ويتمثلان في البعد الخلفي التاريخي الثابت لهذه السيرة، و في البعد المتغير فيها بما طرأ عليها من تغييرات وتحريفات للنص الأصلي، وهذا ما يحاول الراوي إثباته من خلال جعل الخبر منسوبا إلى راو آخر هو الذي قام بالرواية عنه، لتسقط المسؤولية عن عاتق الراوي الثاني الذي يقوم بإعادة ما تلقاه سواء كان شاهدا على الحدث أم لم يشهد[3].

وهذا التداول الشفوي بين الرواة يحدث التغيير الذي يمس متن السيرة الشعبية ويكون هذا التغيير على مستوى الصيغة والحكاية، ويختلف أيضا هذا التعديل حسب ثقافة كل راو والبيئة التي ينتمي إليها، فالراوي هو العنصر الفعال في النص السردي للسيرة الشعبية، من خلال أداءه وملامحه، وحضوره في متن السيرة ، فلا يمكن الاستغناء عنه لاكتمال النص السيري الشعبي[4].

---

[1] ينظر, ضياء الكعبي, السرد العربي القديم الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل ص28 .

[2] ينظر, ضياء الكعبي, السرد العربي القديم الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل ، ص 286

[3] ينظر، وسواس نجاة, السرد العربي القديم في ضوء الدراسات العربية الحديثة , مخطوط دكتوراه, جامعة سيدي بلعباس, 2015 ص64.

[4] ينظر , المرجع نفسه ، ص 65

وأول ما يفتح به الراوي نصه في السير الشعبية العربية عبارة "قال الراوي"، وهي عبارة تشير إلى التناقل الشفهي للمرويات السردية العربية وإسقاط مسؤولية ما يحدث فيها من أحداث وتحديدا تلك الأمور الخارقة الخارجة عن المألوف كما في سيرة عنترة أو سيف بن ذي يزن مثلا القائمة أساسا على العجائبي، فيقوم الرواي الأخير من خلال هذه الافتتاحية بتبرئة نفسه، ويقوم بتكرير هذه العبارة كلما تكررت تلك الأمور الغريبة الغير واضحة التي لا يستطيع الراوي شرحها وتفسيرها للمتلقي، ولهذا تداول كثيرا في النقد العربي الحديث البحث إن كانت الأخبار الموجودة في السير الشعبية التي يقوم الراوي بسردها سيرا حقيقية أم خيالية، ولهذا كثيرا ما اتهم رواة السيرة الشعبية باختلاق أبطال إما مشابهين لأبطال التاريخ أو أكثر خرقا، وتم وصفهم بأنهم أبطال حقيقيون كونهم عاشوا نفس ظروفهم، و بهذا فإن الراوي من خلال هذا التغيير وعلى طريقته الخاصة يقوم بتحريك عواطف المتلقي ويجعله يستحضر المشاهد التي يقوم بروايتها، ويكون هذا من خلال التفاعل الحاصل بين كل من الراوي والمتلقي[1].

ولهذا يلاحظ متلقي نصوص السيرة الشعبية العديد من الشخصيات فيها، التي تم دراستها وتصنيفها حسب ظهورها في المحكي إلى ثلاثة أنواع التي تمثلت في المرجعية والتخيلية والعجائبية، فالشخصية المرجعية هي التي أخذها الراوي من نصوص كتابية وأخرى شفاهية مدرجا عليها بعض التغييرات والتحويلات، فيحافظ بذلك على معظم بعض ملامحها المميزة، ومن الشخصيات المرجعية التي برزت في السير الشعبية نجد كل من الزير سالم، وعنترة بن شداد والهلاليون وعلي الزيبق، فبالاضافة إلى تاريخية هذه الشخصيات فقد أضافت السير بعدا مرجعيا إليها لتؤكد أصولها التاريخية العربية الإسلامية مثل الأمير حمزة البهلوان والأميرة ذات الهمة وابنها عبد الوهاب[2].

أما النوع الثاني الذي عرفته السيرة هو التخيلية التي لم يذكر لها وجود أو أي مرجعية تاريخية سابقة، فهذه الشخصية التخيلية هي أساسا من صنع خيال الراوي الشعبي، و وهي تجسد شخصيات تتضمن في أغلبها شخصيات ذات سمة

[1] ينظر , المرجع نفسه , ص 67 وما بعدها .
[2] ينظر , ضياء الكعبي, السرد العربي القديم , الانساق الثقافية و اشكاليات التأويل ص 172 .

الشر، كتلك التي وردت في سيرة سيف بن ذي يزن وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة الأميرة ذات الهمة[1] .

والنوع الثالث ممثلا في الشخصية العجائبية " المخالفة لما هو واقعي و مألوف، وهي مستوحاة مرجعيات دينية أو كتب الرحلات والجغرافيا العجائبية، وكتب السحر، فكان هذا العنصر العجائبي حاضرا من خلال الجن والسحرة والكهنة والأولياء الصالحين وقدراتهم الخارقة في السيرة الشعبية، وهذه الشخصيات لم يقتصر وجودها فقط في سيرة "سيف ذي يزن" بل كان لها حضور أيضا في غيرها من السير العربية، ويشير الناقد فاروق خورشيد إلى أنه وعلى الرغم من عدم أمكانية الراوي الشعبي على تفسير حضور مثل هذه الشخصيات الخارقة بما تقوم به من عجائب إلا أنه لا يمكن الاستغناء عنها في السير على أن حذفها منها قد يقود إلى حذف أجزاء كبيرة من الشير الشعبية العربية، إذ إنها تشير إلى خلفيات ميثولوجية أسطورية للبيئات التي صنعتها، بما يعكس من ناحية أخرى آمال وتطلعات أهل تلك البيئة وزمنها[2].

من ناحية أخرى لكل سيرة شعبية بطل إذ إنها أساسا ملاحم فروسية وبطولة سواء أكان هذا البطل تاريخيا أم من متخيلا، و تمر شخصية البطل بعدة مراحل يحددها الدارسون في:

_ مرحلة التكوين
_ مرحلة الفروسية أو الذاتية
_ المرحلة الأسطورية
_المرحلة الملحمية
_المرحلة التجريدية أو مرحلة الامتداد

والبطل في السيرة الشعبية العربية وكما يصوره الرواة صاحب رسالة يسعى إلى إيصالها أو قضية ما معالجتها من خلال بعثها للمستمعين، كونه واحدا منهم يسمع صوته بينهم، وبهذا يتأكد رأي الناقد عبد الحميد يونس فيما يخص إطلاقه لفظة الملحمة على السير الشعبية، كونها نصا يسعى إلى إبراز الجوانب

[1] ينظر، المرجع نفسه، ص 183 وما بعدها .
[2] ينظر، فاروق خورشيد، فن السيرة الشعبية، دار الثقافة، القاهرة 1961، ص30، نقلا عن خطري عرابي، البناء الأسطوري للسيرة الشعبية، دار عين، ط1، 2009، 45 .

الفنية و الاجتماعية و النفسية لشخصية البطل في أبعادها الملحمية الحماسية والقومية[1].

لم تخل سير القدماء من البعد التخيلي (الخرافي الأسطوري) بحيث كان هذا أسلوبا حاضرا دوما في جميع أنواع السير الشعبية تقريبا ، و ذلك يتجلى في كون الإنسان في السير دائما ما نجده الى قوة أعظم منه يحتمي بها ، الأسلوب الأسطوري يوفر ذلك فيساعده على تخطي العقبات ، التي تكون بينه و بين تحقيق أهدافه ، و كنموذج على ذلك نجد شخصية " سيف بن ذي يزن" الذي فوجئ بشخص يعرف اسمه فيلتفت له سيف متسائلا من أين يعرفه ، فيرد عليه الآخر قائلا أنا أعرف سابقا ، وفي هذا وفي سيرة سيف كثير من الأمور الغريبة التي تجعل متلقيها يقف على مثل هذه الأمور الخارقة .

2 ينظر , المرجع نفسه ص 72

خاتمة

الخاتمة:

في ختام هذا البحث يمكن تلخيص مجموع النتائج التي توصلنا إليها في:

1 إن دراسة الأدب العباسي بالاستناد إلى أبرز الأحداث التي عايشها تشير إلى أنها كانت دافعا من دوافع ظهور فن السير الشعبية، وتحديدا خلال عصر المماليك الذي شهد أحداث مهمة كان لها كبير الأثر في تشكل هذا النوع .

2 السيرة الشعبية وعلى الرغم من الضعف الذي شهدته والعراقيل التي وقفت حاجزا أمامها إلا أنها استطاعت أن تخرج من إطار التهميش إلى الإبداعية على الرغم من انتمائها الشعبي، وكان ذلك نتيجة تداخل الأجناس الأدبية و تنوع الأشكال التعبيرية ضمنها، و انعدام الحدود الفاصلة بين نوع أدبي وآخر كان سببا في ذلك الثراء الفني داخل السيرة الشعبية شكلا ومضمونا، هذا ما جعلها تمتلك خصوصيات ومزايا شكلية و مضمونية.

3 شابهت السير الشعبية كثيرا الملاحم فيما يخص الشخصيات البطولية التي كان لها دور فيها، فنجد الباحث الكثير من التماثلات فيما بينها.

4 تمكنت السيرة الشعبية أن تقارب صورة الإنسان العربي خلال أزمنة مختلفة، فصورت كيف كانت حياته وأهم مغامراته وفروسيته التي كان يعيشها، فالسيرة الشعبية رغم تداولها الشفهي، و انتقالها على ألسنة رواة مختلفين من مكان إلى آخر، إلا أن هذا لم يغير من طابعها وميزتها بل زادها متعة و تجدد و استمرارية، كونها قابلة للتجدد في أزمنة عقبت روايتها الأولى.

5 اكتساب السيرة الشعبية اللغة السهلة المسجوعة كان دافعا في تحقيق التواصل والتجاوب بين الراوي والمتلقي، وهذا يعد سببا في تطور السيرة الشعبية .

6 السيرة الشعبية غالبا ما كانت تحمل اسم بطلها، و تحكي قصة حياته، و يكون هذا البطل تاريخيا له بطولات في التاريخ العربي، تحدث تفاعلا لدى المتلقي ومتعة في نفس الوقت، نتيجة لفروسيته الأصيلة ، باعتباره صاحب الرسالة وأنه دائما يصارع الشر و يسعى إلى الخير .

7 ترتكز السيرة الشعبية على رواية حكايات ماضية، شفهية يمارس فيها الراوي حرية التعامل مع النص المروي، مدخلا بذلك الشعر للاستدلال أو الاستشهاد.

8 إن أهم ما ميز رواة السيرة الشعبية هو إتقانهم لرواية التاريخ سردا، حيث إنهم لم يكونوا مجرد حاملين له، بل كانوا يكنون كل الاهتمام لما يرونه، ونادرا ما يخطؤون، فقدموا للوعي الشعبي نوعا أدبيا مختلفا يعبر عن أحلامهم و همومهم و آمالهم عبره، كما تميزوا أيضا بالجرأة في النقل بالتدخل في النص، رغم علمهم بحدوده، فقالوا على ألسنة الأبطال مالم يكن بإمكانهم المجاهرة به، وبلغوا رسائل اجتماعية مهمة من خلالهم .

9 كما تمكن الرواة من لمس قلوب الناس وعقولهم باختيارهم لأبطال مروياتهم من مجيد التاريخ، فخاطبوا الوجدان العربي بشخصياتهم، و خلدوا عظيم الأحداث والانتصارات الكبيرة ، فبعثت فيهم هذه المرويات الأمل بظهور شخصية شابهت بطلا من التاريخ ينقذهم مما حل بهم ، و يحقق ما حققه سابقوه ذات يوم.

10كما كان الأبطال الشعبيون عنصرا أساسيا في السيرة الشعبية، إذ لم تستقم الملحمية دونهم، وعلى الرغم من أن بعضهم شخصيات شابهت شخصيات تاريخية إلا انه لم يختلفوا عنهم كثيرا، رغم كونهم خياليين بحيث قد يمتلكون بعدا ملحميا و خرافيا أيضا .

11حملت السير الشعبية كثيرا من سمات العصر العباسي والمملوكي، ورسمت صورة للمجتمع وما ميزه من حكم وسلطة، كما عبرت عن أهم الآفات التي واجهها المجتمع، وتحدثت عن فساد الحكام الذين تمكنوا من الوصول إلى الحكم وكانت سببا في ذلك الفساد الذي حل بالبلاد و الناس، كما نقلت كثيرا من العادات والتقاليد والمعتقدات التي كانت في تلك الفترة .

و في نهاية هذا البحث يبدو أن الحديث عن السير الشعبية لا ينتهي ويحتاج إلى جهود أكبر، تظهر وتضئ ما لم يستطع البحث الوصول إليه و بلوغه، فالسيرة الشعبية هي ليست مجرد باب اتخذ بقصد صناعة المتعة فقط، بل هي فن من فنون الأدب الغزيرة، سهر عليها أشخاص وبذلوا عليها جهود، مساهمين في تدوين التاريخ وحفظه من الضياع والاندثار ضموا فيها كل مشكلات العصر وتحدياته في وقت عجز آخرون عن إيجاد السبل للدفاع عن حياتهم التي سلبت

منهم، كانوا يسعون هم و كلهم أمل و عزيمة أنه في يوم ما سيكونون سبب تغير ذلك الواقع المرير واستعادة الأمجاد.

قائمة المصادر
والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- **أولا** : القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.
- **ثانيا المراجع:**

- إبراهيم عبد الله:

1- موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط، 2005.

2- السردية العربية الحديثة ،تفكيك الخطاب الاستعماري واعادة تفسير المنشأ، دار الفارس للنشر والتوزيع 2003 .

-إبراهيم نبيلة:

1- الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، دار الحمامي ،مصر .

2- سيرة الأميرة ذات الهمة ،دراسة مقارنة ،القاهرة ط1 2016 .

- أبو شوالي ياسر ،الرياضة في السيرة الهلالية ،قراءة في النص المدون للريادة البهية ط1 القاهرة 2010.

- جبار سعيد،الخبر في السرد العربي ،الثوابت والمتغيرات ،دار المداس المغرب .

- حرب طلال، بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك، الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع،ط1999،1 .

-حمزة عباس لؤي، بلاغة التزوير، فاعلية الإخبار في السرد العربي القديم،الدار العربية للعلوم، لبنان ، 208 ط1.

- حسين المصري فاطمة، الشخصية المصرية من خلال دراسة الفولكلور المصري، القاهرة،الهيئة العامة للكتاب، دت .

- محمد رجب النجار، التراث القصصي في الأدب العربي، م1، منشورات ذات السلاسل، الكويت، 1995.

- دياب صفاء، تمثيلات العجيب في السيرة الشعبية العربية ،العراق 2008 .

- عتيق عبد العزيز، في النقد الأدبي،دار النهضة للطباعة والنشر،ط2، 1972.

- القاضي محمد، الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربية .

- الكعبي ضياء، السرد العربي القديم،الأنساق الثقافية وإشكالية التأويل،ط1، 2005.

- النجار محمد رجب، التراث القصصي في الأدب العربي، م1، منشورات ذات السلاسل، الكويت، 1995
- يونس عبد الحميد ،الهلالية في التاريخ،جامعة القاهرة ،1956 .
- يقطين سعيد، الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1997.

- ثالثا المعاجم :

- ابن منظور لسان العرب ،دار الأبحاث ،ط1 /2008 .
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء ،إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب ،دار العرب الإسلامي،ط1 1993

- رابعا الرسائل :

- وسواس نجاة، السرد العربي القديم في الدراسات العربية الحديثة،جامعة سيدي بالعباس،2015.

- خامسا المجلات:

- شعلان عبد الوهاب،الشعر العربي القديم ،السير الثقافية والخصوصيات الجمالية، مجلة الموقف، دمشق ع 412، 2005.
- محمد حسين عبد الحافظ، الحوار المتمدن ،المجلس العلمي سبتمبر 2019 سوريا.

الفهرس

اهداء

شكر وتقدير

بسملة

مقدمة .....أ-ج

مدخل.....5-9

الفصل الأول: السيرة الشعبية قراءة في المفهوم والنوع والتشكل

1. في ماهية السيرة الشعبية 13-14

2. خصائص السيرة الشعبية 15-18

3. **تأليف السيرة الشعبية 18-20**

4. لغة السيرة الشعبية 21-22

5. السيرة الشعبية بين الثقافة والحكاية 22-25

الفصل الثاني: جماليات التداخل بين التاريخ والتخييل في السيرة الشعبية العربية

1. مرجعيات السيرة الشعبية 33-37

2. السيرة الشعبية والحكاية العجائبية 37-46

الخاتمة 52-54

قائمة المصادر والمراجع 56-57

الفهرس 58-59